

١٨



أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

وَالْأُولَى

الْأَخْيَارِ الصَّعْبِ

تأليف: د. محمد بن عبد الله السعيد
 برئاسة: د. عبد الله الشافعي السعيد
 أشرف: د. محمد بن عبد الله السعيد

دار النشر



استيقظت مكة ذات صباح على خبر إسلام «رملة» بنت

أبي سفيان ، ولم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا في دهشة :

- كيف ترك بنت أبي سفيان دين آبائها ، وأبوها واحد

من زعماء العرب وسادتها ، وأعدى أعداء محمد ؟

وحاول أبو سفيان أن يشي أبنته عن الإسلام ويعيدها إلى

الوثنية بكل السبل ، لكن محاولاته باءت جميعها بالفشل ،

فقد أعلنت رملة تمسكها بإسلامها وقالت لأبيها في تصميم :

- ما كان لي أن أعود إلى الظلمات بعد أن هداني الله للإيمان .

واشتد بطش أبي سفيان بابنته ، فحبسها وأخذ يعذبها

عذاباً شديداً كي تعود إلى دينه ، لكنها تحمّلت العذاب في

شجاعة وصبر .

وذات يوم أشارت على زوجها «عبيد الله بن جحش»

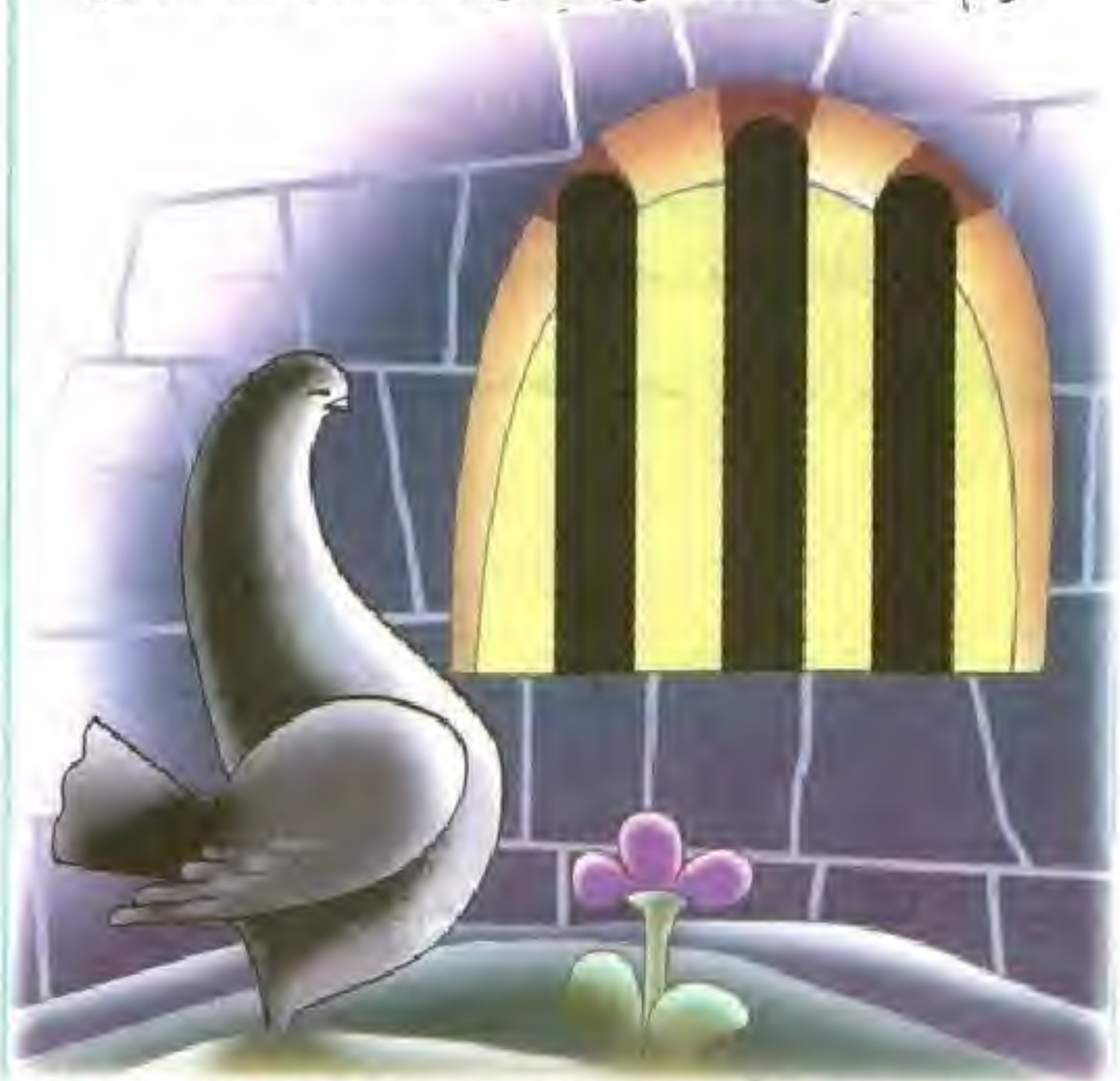
بالهجرة إلى الحبشة فراراً من أذى أبيها وقومها ، فوافق

عبيد الله ، وحمل زوجته وأمتعتة واتجها إلى الحبشة

مهاجرين في سبيل الله .

ومرّت الأيام ، وعاش الزوجان في سعادة ، ورزقهما الله
بطفلة جميلة أسمياها «حبيبة» ، وأحاطهما النجاشي ملك
الحبشة ، كما أحاط كل مسلم ، برعايته وعطفه ، ووقّر
لهما الجوّ المناسب للعبادة والصلاة .

ولم تستمر سعادة الزوجة طويلاً ، فقد لاحظت تغيراً



كبيراً في سلوك زوجها ، إذ أصبح فجأة لا يفيق من الخمر ،
وكلما راجعته زوجته ونصحته بالتخلي عنها زجرها وقال
في غضب :

- هذا شأني وحدي ، وإياك أن تحدثيني في هذا الأمر مرة ثانية .

وباتت رملة طوال ليلها تفكر في أمر زوجها وما أصابه ،
وفجأة استسلمت للنوم ، ولكنها قامت بعد قليل مذعورة
وهي تستغفر ربها وتدعوه ، وحضر زوجها في وقت متأخر ،
فلاحظ الذعر والقلق على وجهها فسألها في دهشة :

- ما بك يا رملة ؟ وما هذا الخوف الذي يرتسم على
وجهك ؟

فقالت رملة :

- لقد رأيت الليلة رؤيا ما أبشعها !

فقال عبید الله :

- أمن أجل أضغاث أحلام تصنعين بنفسك كل هذا ؟

ثم أضاف في غير مبالاة :

وما هذه الرؤيا التي أفرزتك إلى هذه الدرجة يا رملة ؟
وهل تخصك أم تخصني ؟

فقلت رملة :

- بل تخصك يا عبيد الله ، فقد رأيتك في أسوأ صورة
وأشوه خلقه !

فضج عبيد الله بالضحك واتكأ على سريره وقال في
سُخْرِيَةِ :



— ليس هناك أسوأ مما صرنا إليه !

وتعجبت رملة مما تسمع فقالت لزوجها :

— ماذا تقصد بقولك يا أبا حبيبة ؟

فقال في حدة :

— لقد جلب علينا دين محمد الشر ، ومنذ اتبعناه ونحن

نعيش في ضيق ومعاناة .

فقالت رملة :

— بل كنا في ضيق وشر قبل أن نتبعه ، فلما آمنا به شرح

الله صدورنا ، وأنا قلبونا وأبصارنا .

ثم سأله في قلق وريبة :

— ماذا تخفي علي يا عبيد الله ؟

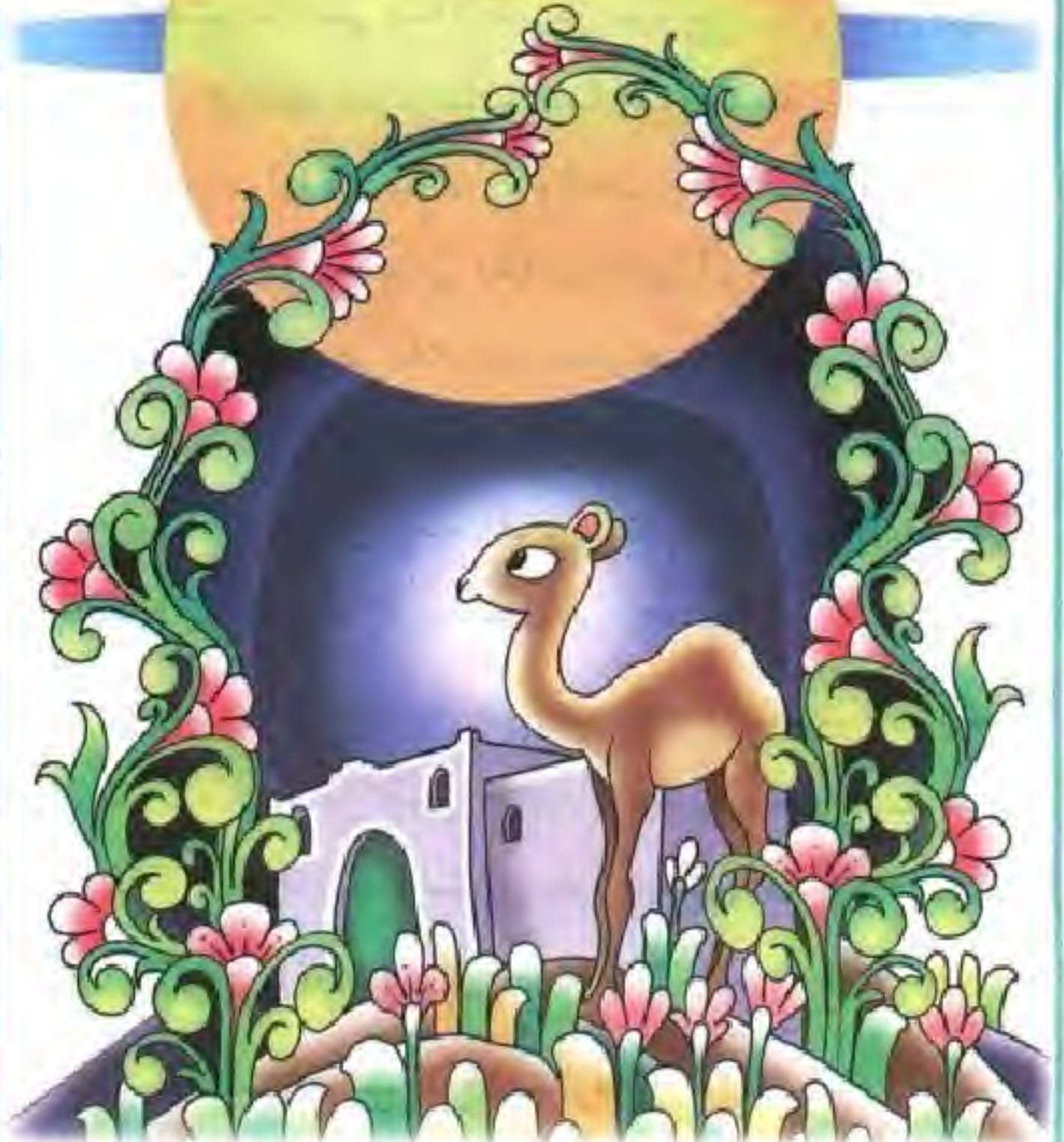
فأجابها :

— لقد تركت دين محمد ، وآمنت بدين أهل الحبشة ،

فقد كنت أدين به قبل أن أدخل في الإسلام .

ثم قال مهديداً :

- وأرى أن تفعلنى مثل ما فعلتُ ، وإلا فارقتك ، فإن ذلك
خير لنا .



فَقَالَتْ رَمْلَةٌ :

- أَفْعَلُ مَا شِئْتُ ، فَمَا أَنَا بِالَّتِي تَشْرُكُ الْإِسْلَامَ وَتَعُودُ
لِلشُّرْكِ أَبَدًا ، وَوَاللَّهِ مَا هَذَا خَيْرٌ لَكَ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ وَخُسْرَانٌ .

وَأَفَاقَتْ رَمْلَةٌ عَلَى هَذَا الْكَابُوسِ الْمُرْعَجِ ، إِذْ رَأَتْ زَوْجَهَا
وَأُنَيْسَ وَحَدَّثَهَا يَتْرُكُ دِينَ الْإِسْلَامِ ، وَيَتَنَصَّرُ تَحْتَ تَأْثِيرِ
الْخَمْرِ وَغَوَايَةِ الشَّيْطَانِ .. وَرَاحَتْ رَمْلَةٌ تَفَكَّرُ طَوِيلًا فِي
مَصِيرِهَا .. هَلْ تَعُودُ إِلَى مَكَّةَ فَيُعَذِّبُهَا أَبُوهَا وَيَشْمِتُ بِهَا
قَوْمُهَا ؟ أَوْ تَبْقَى فِي بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَتَعِيشَ فِي قَسْوَةِ الْغُرْبَةِ
وَالْابْتِعَادِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ؟ أَمَّا أَنْ تَتَنَصَّرَ كَمَا تَتَنَصَّرُ
زَوْجُهَا لِكَيْ تَعِيشَ مَعَهُ ، فَإِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ تَفَكَّرْ فِيهِ عَلَى
الْإِطْلَاقِ ، فَقَدْ كَانَ إِيمَانُهَا أَثْبَتَ مِنَ الْجِبَالِ !

وَأَغْلَقَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ دَارَهَا عَلَى نَفْسِهَا ، وَانْتَظَرَتْ مَا سَوْفَ
تُسَفِّرُ عَنْهُ الْأَيَّامُ ، وَتُظْهِرُهُ الْأَقْدَارُ . وَذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَبَيْنَمَا هِيَ
غَارِقَةٌ فِي الْحُزْنِ إِذْ سَمِعَتْ مَنْ يَقُولُ لَهَا فِي الْمَنَامِ :

- لَا تَحْزَنِي يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ !

وَاسْتَيْقَظَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ وَأَخَذَتْ تَرُدُّدُ :

— أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ! هَلْ سَأَصْبَحُ أُمًّا لِلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ؟

وَلَمْ تَقْرَ سِوَى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ عَلَى هَذِهِ الرُّؤْيَا ، حَتَّى سَمِعْتَ
أُمَّ حَبِيبَةٍ دَقًّا عَلَى الْبَابِ ، فَأَسْرَعْتَ لِتَفْتَحَ ، فَإِذَا بِهَا بِجَارِيَةٍ
التَّجَاشِيَّ وَهِيَ تَقُولُ لَهَا :

— أَبْشُرِي يَا أُمَّ حَبِيبَةٍ .



فَقَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ :

- بِشْرِكَ اللَّهُ بِكُلِّ خَيْرٍ .

فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ :

- إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَ إِلَيْهِ

لِيُزَوِّجَكَ لَهُ ، وَيَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَتَوَكَّلِي مِنْ يَزَوِّجَكَ !

وَلَمْ تَصَدُقْ أُمُّ حَبِيبَةَ أَذْنِيهَا ، فَأَعْطَتِ الْجَارِيَةَ سَوَارِينَ مِنْ

فِضَّةٍ وَخَوَاتِمَ كَانَتْ فِي أَصَابِعِهَا وَقَالَتْ لَهَا وَهِيَ لَا تَقْدِرُ

عَلَى مُغَالَبَةِ دُمُوعِهَا :

- بِشْرِكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ ، وَهَدَى قَلْبَكَ لِلْإِيمَانِ .

فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ :

- لَقَدْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ وَاتَّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ ،

وَأَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ إِذَا أَتَيْتِ رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْرِيئِهِ مِنِّي السَّلَامَ .

فَقَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ :

- أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَرْسَلَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ إِلَى ابْنِ عَمِّهَا خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ

وَجَعَلَتْهُ وَكِيلًا عَنْهَا فِي زَوَاجِهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَفِي الْمَسَاءِ
اجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي قَصْرِ النِّجَاشِيِّ فَقَالَ لَهُمْ :

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ السَّلَامِ الْمُؤْمِنِ الْمُهَيْمِنِ
الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ .



أَمَّا بَعْدُ : فَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى أَنْ أَرْوِّجَهُ أُمُّ حَبِيبَةَ
بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ فَأُجِبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ،
وَقَدْ أَصْدَقْتُهَا أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارٍ .

فَأَجَابَهُ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَكِيلُ الزَّوْجَةِ قَائِلًا :
- الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَحْمَدُهُ وَأُسْتَعِينُهُ وَأَسْتَنْصِرُهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ أُجِبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ،
وَزَوْجَتَهُ أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، فَبَارَكَ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
وَابْتَهَجَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْحَبِشَةِ بِهَذَا الزَّوْاجِ الْعَظِيمِ ، فَقَدْ
جَاءَ تَتْوِيجًا لَصَبْرِ أُمِّ حَبِيبَةَ وَصِدْقِهَا وَتَمَسُّكِهَا بِدِينِ اللَّهِ ،
كَمَا جَاءَ لِيُخْرِجَهَا مِمَّا كَانَتْ تُعَانِيهِ بَعْدَ فِرَاقِ زَوْجِهَا لَهَا
وَارْتِدَادِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ ،
وَأَمَّا لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ .

وَأَعِدُّ النَّجَاشِيَّ وَلِيْمَةً عَظِيمَةً ابْتِهَاجًا بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ ،



ودعَا إليها المسلمين وقال لهم :

- اجلسوا فإنَّ سُنَّةَ الأنبياء إذا تزوجوا أن يطعموا طعامًا .

فجلس الصحابةُ وأكلوا ، وهنأ بعضهم بعضًا بهذا الزواج المبارك ، الذي ضرب به الرسول ﷺ المثل في السمو والعظمة والتعاطف مع المسلمين .



ولما أخذت أم حبيبة الصّدّاق ، دعت جارية المَلِك ،
وأعطتها خمسين ديناراً وقالت لها :

- إني كنت أعطيتك سوارين من فضة حين بشرتني بهذه
البُشْرَى العظيمة ، ولم يكن عندي سواهما ، فهذه
خمسون ديناراً فخذيهما واستعيني بها .

لكن الجارية أبت أن تأخذ منها شيئاً وقالت لها :

- بارك الله لك في مالك يا سيّدتى ، لقد أمرنى المَلِك ألا
أخذ منك شيئاً ، فقد كافأنى بنفسه .

وأضافت الجارية :

- وقد بعثت إليك أزواجه بهذه العُطُور وهذه الأعواد
الطّيبة لتقدّمى بها على رسول الله ﷺ .

وشكرت أم حبيبة الجارية ، وقبلت منها الهدايا التى
أرسلتها أزواج المَلِك ثم سألتها :

- هل لك حاجة أقضيها لك ؟

فقالت الجارية :

– حاجتى إليك أن تُقرئنى على رسول الله ﷺ منى السلام ،
وتعلميه أنى قد اتبعت دينه !

واستعدت أم حبيبة للرحيل إلى المدينة المنورة ولقاء
الحبيب ﷺ فى السنة السابعة للهجرة ، وخفق قلبها
بالحب والإيمان وهى تتركب راحلتها ، وفاضت عينها وهى
تمضى فى طريقها إلى رسول الله ﷺ .



وزف أهل مكة الخبر إلى أبي سفيان ، وانتظروا أن يقع
من هول المفاجأة ، إذا علم أن ابنته تزوجت من محمد ﷺ ،
لكنهم فوجئوا به يكاد يطير من الفرحة ولا يصدق أذنيه
وقال في فخر :

- هو أشرف العرب على الإطلاق ، وحق لمن يصاهره
محمد أن يفخر ويثبه على الناس جميعا .

ولم يجد العرب ما يقولونه تعليقا على كلام أبي سفيان
سوى قولهم :

- حقا ، الحق ما شهدت به الأعداء !

(تمت)

الكتاب القادم

أم حبيبة زملة بنت أبي سفيان (٢) مكاتبتها بين نساء النبي

رقم الإيداع : ٢٠٢ / ٧٣٢٥

الترقيم الدولي : ٩٠ - ٧٦٠ - ٢٩٩ - ٩٧٧